الفصل السادس
القدرة علي الترميز الصوتي

القدرة الكبرى التي وهبها الله تعالى للإنسان هي القدرة الترميزية؛ ليصنع رمزا صوتيا أو إشاريا لكل ما حوله وما غاب عنه من أشياء، ليتمكن من عمارة الأرض، فيستدعي الأشياء الغائبة عنه برمزها، ثم أصبح الترميز صفة وراثية يتوارثها البشر جيلا بعد جيل، لقد انطلقت هذه القدرة الوراثية من جين سجلت عليه هذه الصفة؛ فتتحول إلي صفة جينية متوارثة. لقد كانت عملية الترميز هي الدرس الأول الذي تلقاه آدم عليه السلام من ربه، حيث علمه سبحانه وتعالى أن يجعل لكل شيء رمزا، وبدأ بترميز الأشياء المادية بعرضها عليه مع رمزها الصوتي، فتعلم آدم ترميز الأشياء الماديات كلها، وأصبح لديه القدرة على الترميز بصنع رمز للشيء، ثم أصبحت صفة وراثية جينية في أدمغة بني آدم يتوارثونها عبر الأجيال من خلال جيناتهم الوراثية. هذا كما تصور أصحاب الديانات السماوية، الذين آمنوا بالله وكتبه التي أشارت إلي ذلك. لكن ماذا في رأس العلماء الآخرين من تصور حول عملية الترميز؟ هذا ما نحاول دراسته وتحليله من خلال المحاور الآتية:

- المحور الأول: مفهوم الترميز.
- المحور الثاني: تاريخ الترميز.
- المحور الثالث: الترميز قدرة فطرية.
- المحور الرابع: الإبداع اللغوي الرمزي.
- المحور الخامس: المخ يرمز.
- المحور السادس: صناعة الرمز.
- المحور السابع: الترميز الإبداعي.
- المحور الثامن: مرجع الرمز واستدعاؤه وتطوره.
- المحور التاسع: إعجاز الخالق **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣)﴾** [الأعلى: ٢ – ٣].

المحور الأول: مفهوم الترميز

١ – مفهوم الترميز:

يرى مارك سيمز أن الترميز شفرة متفق عليها بين شخصين حول شيء ما؛ يتواصلان معا به؛ فيصبح الرمز إشارة يتعارف بها على الشيء فيشير الشخصان به

إليه. وتسمى عملية صنع رمز للشيء بعملية الترميز، وقد عرفه مارك سيمز بقوله "إن السمة المميزة للعقل البشري هي طبيعته الرمزية. ولفهم حداثة هذه الفرضية، ولجعلها تبدو منطقية، يجب علي المرء أن يتعامل مع الرمز باعتباره مرجعا كيفيا يستخلص معناه من السياق الذي يظهر فيه الرمز. ويوحي تخيل الرموز بهذه الطريقة بأن معني أي رمز بعينه يعد دائما مسألة تفسير طالما أن النصوص تتغير عبر الزمن، فمن المنطقي أن يتغير معني الرمز نفسه. ويوحي هذا التعريف أيضا أن الرموز تتضاد نوعيا مع الإشارات، التي دائما تتجلى في تناظر أحادي مع مرجعها في البيئة ويتسم معناها بالسرمدية."[1]

تعريف سيمز يبين مفهومه عن الرمز، الذي يشير فيه إلي أن الرمز يتميز بالآتي:

١- أنه سمة تميز العقل البشري، فلا يوجد في الخلق من يضع رمزا للأشياء إلا الإنسان.

٢- أن العملية الترميزية ترجع إلى قدرة في مخ البشر، الذي يرمز الأشياء بصورة تلقائية.

٣- أن مرجع الرمز أي معناه؛ يأتي من اتفاق يفهم من معنى السياق الذي يرد فيه.

٤- أن معنى الرمز يكمن في تفسيره، فإذ تغير النص الذي يرد فيه الرمز تغير معنى الرمز.

٥- أن الرموز تتضاد مع الإشارة، فالإشارة يكون معناها محددا ببيئتها وسرمديا بلا تغير.

إن مارك سيمز يري عملية الترميز موهبة، وهبها الله سبحانه وتعالى للمخ البشري داخل كل أدمغتهم؛ فهي قدرة من قدرات الله؛ وهبها إياهم ليتمكنوا من التواصل مع عالمهم بكل ما فيه من موجودات. أما مرجع الرمز فهو الشيء الذي يشير إليه الرمز؛ وينوب هو عنه، ويمكن معرفته من السياق الذي يرد فيه. ومعني الرمز يتغير بتغير الزمان، وذلك للنشاط الدائم والمتغير للمخ البشري؛ لهذا فإن الرمز يتفوق علي

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل: مارك سيمز، تر/ طارق راشد العليان، مجلة الثقافة العالمية (١٧١) يوليو ــ أغسطس٢٠١٣ الكويت، ص١٣

الإشارة بقدرته علي التغيير. ونضيف إلي ما قاله سيمز: إن الرمز الذي يشير إلي الشيء الواحد قد يتعدد كرمز ويظل الشيء واحدا كما هو. أما التعدد فيأتي من اختلاف زوايا النظر إلي هذا الشيء؛ لذا يصبح للشيء أكثر من رمز.

مثال: يسمي جهاز الاتصال (الموبيل) بأسماء عدة كرموز صوتية لهذا الجهاز تبعا لاختلاف الزوايا التي ينظر إليه منها، ففي مصر يُنظر إليه كشيء سهل الحمل فسُمِّى (محمولا)، وفي السعودية يُنظر إليه كشيء يتجول مع صاحبه من مكان إلي آخر فسُمِّى (جوالا)، وفي الشام يُنظر إليه كشيء يمكن اصطحابه إلي الخلاء فسُمِّى خلويًّا. فإذا نُظر إليه من جانب صار اسما له، علي الرغم من أن المسمى واحد؛ وكلها أسماء عربية.

٢- الترميز آلة إبداع وتخيل:

إن اللغة آلة تواصل؛ هذا التواصل هو وظيفتها التي تحقق الغاية منها كما يري هو. لهذا يقول "اللغة ليست مجرد نمط للاتصال، وإنما هي أيضا التجلي الصريح لنمط الفكر، وهو نمط غير مألوف؛ أي التعبير الرمزي؛ إذ بدون الرمز يغدو كل هذا العالم الخائلي الذي نتحدث عنه بعيد المنال ... أن الفكر الرمزي لا يتوفر كشيء مدمج فطريا في الإنسان، بل يتطور عن طريق استدخال العملية الرمزية التي تشكل أساسا للغة."[١]

إنها القدرة اللغوية الكبرى لدى الإنسان وهي القدرة الترميزية؛ التي تعد القدرة الثالثة للبشر عند ديكون التي تحقق لهم تواصلهم مع عالمهم؛ فجعلوا لكل شيء رمزا يشير إليه. وهي قدرة موجودة فطريا ومدمجة في العقل البشري، وهي تشكل أساسا لصنع اللغة، فمن لا يستطيع أن يصنع رمزا لغويا صوتيا ليتواصل به لا يمكنه أن يتكلم مع أحد قط، ولا أن يبدع ؛ وذلك هو مفهوم اللغة عنده.

وكذلك تبدو لديه قيمة اللغة كعملية ترميزية تحقق التواصل من خلال عملية الترميز اللغوي يقول "إن الطريقة التي تمثل بها اللغة الأشياء والأحداث والعلاقات تزودنا ببطاقة اقتصادية فريدة علي الاستبدال، إنها تهيئ لنا وسيلة توليد صور متباينة

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٧

لانهائية من التمثيلات الجديدة، كما تزودنا بقدرة استدلالية غير مسبوقة للتنبؤ بالأحداث وتنظيم الذكريات وتخطيط السلوك."[1] لا يمكننا تصور العالم الواقعي الذي نعيش فيه دون آلة التخيل (الرمز)؛ فالرمز هو الذي يجعلنا نستدعي الشيء في غيابه، ونبني حوله القضايا الحوارية، ونفكر فيه بالرغم من غيابه. إن اللغة في نظره رموز تصور وتنقل لنا تفكيرنا الداخلي، فهي تعبير رمزي؛ إننا بدون هذه الرموز لا يمكننا أن نحيا في عالم خيالي تصوري. إنه يتكلم عن جانب الإبداع الموجود في مخ البشر؛ وهو قدرتهم علي التصور والتخيل؛ تلك قدرة أخري يشير إليها ديكون توضح جانبا خلّاقا مخفيا في أدمغتهم هو سر إبداعهم؛ وهو قدرتهم تصورية التخيلية بما يعرف بالبنية التصورية؛ ومنه عملية الترميز، فهي خلق وإبداع لكل جديد.

المحور الثاني: تاريخ الترميز

متى بدأ الإنسان عملية الترميز الصوتي؟ قال بول كوبلي "إن القدرة علي الترميز الشفهي أو التكلم وحل الشفيرة أو فهم الكلام وضعت موضع الاستخدام منذ حوالي ٣٠٠٠٠٠ سنة مضت مع بدايات فصيلة الإنسان الحديث العاقل (Homo Sapiens). وبالتالي امتلك البشر القدرة على اللغة قبل وقت طويل من بدء تطبيقها عن طريق الكلام لأغراض التواصل الشفهي. قبل ظهور الشكل الشفهي للتواصل، كان هذا الأخير يتم بالوسائل غير الشفهية، وهي وسائل مازال البشر يستمرون في استخدامها وصقلها إلي يومنا هذا."[2] هذا القول يعني أن:

١- الترميز قدرة فطرية كامنة في مخ البشر وتنقسم إلي:

أ) القدرة على الترميز الصوتي. ب) القدرة على الترميز الإشاري.

هذه القدرة تعني :

أ) القدرة على الكلام. ب) القدرة على تشفير الكلام وفهمه.

٢- بدأ البشر باستخدام قدراتهم علي الكلام منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة، فامتلكوا لغتهم.

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٧

(٢) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ٤٠

٣- امتلكوا قدرة فطرية لغوية في أمخاخهم؛ فامتلكوا اللغة قبل أن يتكلموا بها بزمن بعيد.

٤- الكلام تطبيق فعلي للقدرة الفطرية أتي بعد امتلاكها بزمن بعيد تواصلوا معا بالإشارة.

هذا القول يعني أن هناك قدرة داخل العقل البشري علي تشفير الأشياء؛ بوضع رموز لها كانت إشارية ثم صارت صوتية وإشارية؛ إنها قدرة داخل العقل البشري مكنتْهم من صنع رموز صوتية لتدل علي الأشياء والأحدث، ومع تعقد الحياة وتشابكها زاد نشاط القدرة الترميزية الموجودة لديهم سلفا؛ لقد تحدث بول عن قدرة الإنسان علي الترميز الصوتي؛ بوضع اسم لكل شيء لينطق به، ثم يصبح رمزا صوتيا له.

بدأ الإنسان في القيام بهذه العملية الترميزية منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة، وقد اعتبر بول أن الإنسان امتلك أولا القدرة الترميزية التي صنع منها اللغة، ثم حدث تطبيقه لها في كلام صوتي مُرمَّز ثانيا، بدأ يرمز برموز إشارية غير صوتية قبل بداية ترميزه الصوتي؛ ولا زال البشر يستخدمون عملية الترميز الإشاري ويصقلونها حتى الآن، قبل ترميزهم الصوتي.

هذا القول يطرح عدة أسئلة نناقشها مع بول، هي:

أولا: ماذا يقصد بامتلاك الإنسان القدرة علي اللغة؟ وما الفرق بين اللغة والقدرة عليها؟

إن امتلاك الإنسان اللغة أن يصبح قادرا على الكلام بها، ولكن هناك فرق كبير بين اللغة وامتلاكها؛ فاللغة في أصلها ما يصدر عنا من أصوات. أما القدرة على اللغة فهي القدرة على إنتاج اللغة بشكل يحقق التواصل؛ يحكمها نظام من القواعد اللغوية التي وظفت فيها الأصوات لتحقق التواصل. لذا فإنه من الممكن أن نجد إنسانا في مخه اللغة بقواعدها وألفاظها فقد امتلكها، لكنه يعجز عن النطق بها، لمرض أصابه فلا ينتجها.

ثانيا: اللغة تختلف عن الصوت؛ **فالصوت:** فطري تلقائي يصدره الجهاز النطقي في كل إنسان صحيح وأبكم وطفل، بصورة عفوية في الأصل، ثم يصبح لغة. **واللغة**

عملية توظيف للصوت، للاستفادة منه في تأدية وظيفة تواصلية؛ فيتحول الصوت في إطار وظيفته اللغوية إلي رمز له قيمة تواصلية؛ وتصبح اللغة (وهي مكتسبة) مسئولة بوصفها الجهاز المتحكم في إنتاج الأصوات؛ موظفة دلاليا. لهذا فإن اللغة مهارة مكتسبة توظِّف الصوت المُنتج فطريا ليصبح رمزا صوتيا له أغراض تواصلية.

ثالثا: تحديد بول لزمن بداية الكلام الفعلي التواصلي فيه نظر، إنه لا يملك دليلا قاطعا علي صحة تاريخ بداية الكلام؛ بل الأمر فيه خلاف، وكذا تحديد من الإنسان الأول.

رابعا: ميز بول بين عمليتين هما: امتلاك القدرة علي اللغة (أي القدرة علي الترميز الصوتي)، وعملية الكلام الفعلي التواصلي. فجعل امتلاك القدرة علي الترميز الصوتي تسبق عملية إنتاج الكلام الفعلي التواصلي. وهذا صحيح فامتلاك القدرة علي الترميز الصوتي يجب أن تسبق عملية إنتاج الكلام التواصلي الفعلي. لأن الأولى مودعة في مخ الإنسان كقدرة فطرية لديه في أصل تكوينه قبل أن يولد؛ تمكنه من التواصل مع غيره. أمَّا الثانية: فهي عملية تطبيق فعلي لقدرته علي الترميز الصوتي؛ فتُظهر عمليةُ الكلام الفعلي التواصلي القدرةَ علي الترميز الصوتي التي ولد بها، لهذا فعملية الكلام الفعلي التواصلي هي توظيف الصوت لغاية تواصلية، هي داخلة عليه (أي اللغة)؛ سيكتسبها بالتعلم. أما الترميز الصوتي فقدرة فطرية يولد مزودا بها.

خامسا: أيهما موجود أولا لدي الإنسان؛ القدرة علي الترميز أم تطبيق تلك القدرة الترميزية في الكلام الشفهي المنطوق؟

يقول بول: إن القدرة علي الترميز الشفهي (الصوتي) وضعت موضع الاستخدام منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة" فبدأ في استخدام هذه القدرة منذ ذلك التاريخ؛ فهي كقدرة ترميزية موجودة في الإنسان سلفا قبل بدء استخدامها في عملية الكلام الفعلي، ثم قال مؤكدا ذلك "وبالتالي امتلك البشر القدرة علي اللغة قبل ... بدء تطبيقها عن طريق الكلام لأغراض التواصل الشفهي." فامتلاك القدرة علي الترميز الصوتي كان قبل بدء النطق بالكلام الفعلي التواصلي. هذا يرجع إلي أن الترميز قدرة فطرية ولد بها ثم نطق.

سادسا: أشار بول إلي أن الترميز الصوتي يختلف عن الترميز الإشاري، وكلاهما يحقق غاية تواصلية، لكن الترميز الإشاري موجود لدينا قبل تطبيقه بالكلام الشفهي؛ هذا الأمر يثبته واقع الأشياء؛ فأغلب الأشياء كان لها رمز إشاري ثم تحول إلي رمز

صوتي. بل إن حديثنا اليومي لا يخلو من إشارة ما مصاحبة للكلام بأي جزء من أجزاء الجسد.

سابعا: أشار بول إلي أن القدرة علي الترميز كقدرة خاصة بالعقل البشري موجودة فينا قبل بداية كلامنا الفعلي، وهذا أمر منطقي تفرضه طبيعة الأشياء، فلكي نتكلم لا بد أن نجمع بين شيئين: الاسم والمسمى، وتكون لدينا القدرة الذهنية علي فعل هذا من خلال عملية الترميز؛ فنحول كل شيء إلي رمز؛ إننا نبدأ بامتلاك القدرة علي الترميز الصوتي أولا، ثم القدرة علي تطبيقها بكلام شفهي ننطق به ثانيا، فنجمع في فضائنا الذهني بين اسم الشيء كرمز صوتي منطوق؛ وبين الشيء نفسه داخل أدمغتنا لننطق باسمه.

ثامنا: يشير بول إلي خلاصة رأيه حول هذه القدرة كنتيجة توصل إليه بعد حديثه السابق قائلا "يتطلب البحث في تعريف اللغة أن نأخذ في الاعتبار القدرة الإنسانية التي يأتي وجودها سابقا لمظاهرها الشفهية، ... إذ إن تلك القدرة هي في أصلها قدرة بيولوجية خاصة بالنوع البشري"[1] هذا القول يعد خلاصة كل ما سبق؛ حيث يعترف بوجود قدرات داخل أدمغة البشر سلفا قبل أن يتكلموا، مكنتهم من النطق باللغة، هذه القدرة هي قدرة بيولوجية، أي ترجع إلي تكويننا البيولوجي، وهبنا الله إياها لنتكلم.

إنه يؤكد علي أن هناك قدرة فطرية لدى الإنسان علي الترميز؛ وجدت فيه قبل بدء الكلام، ثم تأتي القدرة علي الترميز الصوتي بتحويل الشيء إلي رموز صوتية؛ وهي قدرة خاصة داخل التكوين البيولوجي للبشر، وأنا أوافقه الرأي في ذلك، فكما أن التكوين البيولوجي لكل المخلوقات يختلف عن تكويننا نحن البشر؛ فقد أعطانا الله سبحانه وتعالى قدرات لا توجد لدى كثير من المخلوقات. وأعطاهم قدرات لم تُعط للبشر؛ مثل الرؤية الليلية التي لدى البوم؛ فكل ميسر لما خُلِق له، وسبحان خالق الخلق أجمعين.

---

(١) دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات: ٤١

المحور الثالث: الترميز قدرة فطرية

١ – الإنسان المخلوق المُرَمِّز: يرى ديكون أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي لديه القدرة علي الترميز الصوتي، ومن ثم القدرة علي صنع اللغة التي هي رموز صوتية، يقول "إن دعوايِّ التي أبدو فيها مغاليا والتي أدعو فيها لمعرفة ما الذي لا يمكن أن تعرفه الأنواع الأخرى تعتمد علي بيِّنة مؤداها أن الفكر الرمزي لا يتوفر كشيء مدمج فطريا في الإنسان، بل يتطور عن طريق إدخال العملية الرمزية التي تشكل أساسا للغة، لذلك فالأنواع التي لم تكتسب القدرة علي التواصل رمزيا لا يمكن أن تكون قد اكتسبت قدرة علي التفكير بهذه الطريقة أيضا"(١)

إن الفكر الرمزي شيء مدمج فطريا في الإنسان ومتطور معه، ومَنْ ليس لديه القدرة علي الترميز من مخلوقات الله؛ فليس لديه القدرة علي التفكير والخلق والإبداع، فإن التفكير في أساسه عملية ترميز، ليست لدى كل المخلوقات. لماذا؟ لأن الإنسان المخلوق الوحيد الذي سيبدع في هذا الكون وسيغير فيه بذلك الإبداع؛ فهو من أبدع السيارة والصاروخ وناطحات السحاب وغيرها؛ لهذا احتاج إلي قدرة خاصة غير نمطية وغير موجودة في غيره من الخلق. لقد عظَّم الله سبحانه وتعالى من تلك القدرة التي وضعها في الإنسان بقوله: **﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون: ١٤]. لقد وضع الله سبحانه فينا كبشر القدرة علي الإبداع والخلق؛ ثم أشار سبحانه إلي عظمة صنعته الإنسان أنها أحسن صنعة وأفضل خلقه؛ بما وهبها من قدرة علي الخلق والإبداع، ويظل هو أحسن الخالقين؛ هيهات هيهات أن نخلق مثله، فتبارك الله أحسن الخالقين.

٢ – اللغة قدرة ترميزية فطرية: يقول ديكون " يبدو أن الباحثين في مجال اللغة توصلوا إلي توافق في الآراء بأن اللغة قدرة فطرية، ورأوا كذلك أن المعرفة الفطرية تسهم بقدر كبير يمكنه أن يفسر لنا قدرتنا علي التعلم مثل هذه المنظومة المعقدة للاتصال، وبديهي أن الأطفال يدخلون العالم ولديهم استعداد سابق لتعلم اللغات

(١) الإنسان . اللغة . الرمز: ٢٧

البشرية، ... ويبرهن هذا علي أن أمخاخ البشر وفدت إلي العالم مجهزة بشكل خاص ومحدد لهذه الوظيفة، وطبيعي بأن قليلين سوف يجادلون بشأن هذا المصطلح فطري"[1]

هذا القول علي درجة كبيرة من الأهمية ويحتاج إلي أن نفنده لأنه يحوي معلومات جد خطيرة حول اللغة ومفهومها عنده، ونتناول ذلك القول بالتحليل في النقاط الآتية:

١- اللغة قدرة فطرية؛ وقد أكد علي هذا عدة مرات في هذا النص، وهذا القول مردود عليه؛ فهي ليست فطرية؛ بل القدرات [2]الكامنة في أمخاخنا هي الفطرية، وهي التي كونت القدرات اللغوية، الناتجة عن قدرات أخرى، مكنتنا من صنع اللغة في مخنا بالاكتساب.

٢- المعرفة قدرة فطرية؛ وهذا غير صحيح، بل إن المعرفة كمعلومة داخلة علي المخ مكتسبة بالتعلم، أمَّا القدرة علي التعلم فهي فقط القدرة الفطرية.

٣- اللغة وسيلة اتصال تعمل كمنظومة معقدة؛ وهذا أمر واضح وأكيد.

٤- الأطفال يأتون إلي الحياة ولديهم قدرة أو استعداد فطري للتعلم فقط؛ كقدرة أساسية وجوهرية لبقائهم في الحياة والتواصل مع من فيها؛ وذلك في أي لغة من لغات البشر؛ فقد أتوا إلى الحياة ولديهم قدرة فطرية علي التعلم، وبدأت هذه القدرة في العمل قبيل ميلادهم من خلال حاسة السمع التي تمكنهم من سماع لغتهم التي سيتكلمون بها فيما بعد.

٥- أمخاخ البشر وفدت للعالم مجهزة لهذه الوظيفة (اللغة)، بواسطة قدرتها علي التعلم.

وهذا القول هو إشارة إلي الإعداد والتجهيز المسبق للمخ البشري لاكتساب اللغة؛ وما قاله ديكون يوضح عمق فهمه للغة، وأنها تنشأ في أدمغة البشر قُبيل ميلادهم وتنمو وتتطور مع نموهم وتطورهم وزيادة حجم معلوماتهم. لكنها ليست فطرية. فاللغة مكتسبة كسائر العلوم المعرفية. وهو يربط بين اللغة والاستعداد الفطري للتعلم، وخصوصا تعلم اللغة. وهذا اعتراف ضمني منه بأنها مكتسبة، وهذا الاستعداد

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز: ١٨٣

(٢) كالقدرة علي التعلم والترميز والتفكير والتعميم والاستنتاج، وغيرها من القدرات التي سنشير إليها في موضعها.

الفطري للتعلم ليس لتعلم للغة فحسب، فهو لديه استعداد فطري لتعلم كل العلوم المعرفية والمهارات والخبرات التي يلتقي بها في حياته، ومن بينها اللغة باعتبارها تحوي معلومات وخبرات ومهارة تواصلية.

المحور الرابع: الإبداع اللغوي الرمزي

هل الترميز عملية نمطية تسير وفق آلية محددة لها نتائج معروفة، أم هي متغيرة تخضع لعوامل متعددة داخل المخ الذي يُرمِّزُ ويبدع ويغير وينوع فيها؟ يمكن فهم هذا مما يأتي:

أ) اللغة رموز إبداعية:

يرتبط الرمز باللغة ارتباطا شديدا، فاللغة في كنهها رموز صوتية؛ وصناعة هذه الرموز هي عملية إبداعية؛ لهذا لو قابلنا بين اللغة والرمز الذي تشير إليه "تصبح أهمية الرموز في التجربة الإنسانية جلية علي الفور ما إن يفكر المرء في مثال اللغة التي تعد منظومتنا الرمزية الأولى، فالكلمات رموز"[1] فإذا كانت اللغة رموز صوتية، فإن من طبيعتها التغيير، لأنها من إبداع المخ البشري الذي هو مبدع ومتطور ومتغير بطبيعته وفطريته. لذا "فمعني الكلمات ليس مطلقا أبدا، وهي حقائق العملية الإبداعية العقلية، وفي كل وظيفة نوظفها إياها يجب أن تعاد كلماتنا دائما بناءً علي سياق دائم التغير"[2]

السياق اللغوي دائم التغير: لأنه سياق إبداعي، فالقدرة على الإبداع التي في مخ الإنسان هي ما يجعلنا نغير ونبدل في معاني الكلمات وما ترمز إليه، لهذا يجب ملاحظة جانب الإبداع في اللغة الذي يغير الرمز ويطوره، فعندما نعيد توظيف الكلمة في سياق دلالي جديد يجب علينا إعادة تفسيرنا للكلمات؛ لأن معناها يتغير في السياق الجديد.

ولأن الإبداع قدرة فطرية داخل أدمغة البشر ؛ يجب ألا نفهم معني الإبداع بصورة ضيقة لنقصره على مجموعة من البشر سميناهم المبدعين؛ فهذا الاسم يمكن أن نجعله قاصرا علي مجموعة من المخترعين من العلماء في شتى العلوم، لكن الأمر في اللغة

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٤

(٢) البنية المحال اختزالها للعقل:١٤

مختلف تماما؛ فالمبدع هنا ليس فردا بعينه ممن نظن بهم هذه الصفة من الشعراء والأدباء، ولكن الأمر في اللغة مختلف تماما فمَن هو المبدع في اللغة؟ إنه شخص غير معروف بالتحديد، وهو كل متكلم باللغة؛ ولديه مقدرة علي إنتاج كلام صحيح؛ لهذا فهو قادر علي أن يبدع الجديد في اللغة كل يوم. ليس الإبداع اللغوي قاصرا علي شخص ما؛ فقد يكون هذا الشخص جاهلا أو متعلما أو مثقفا المهم أنه من أبناء هذه اللغة.

مثال:

سمعت يوما بائعا جائلا ينادي علي سلعته قائلا (ولا تزعل ثانية واعصر الليمون علي البامية) إنها عبارة إتباعية إبداعية؛ أحدثت نغما صوتيا موسيقيا بالتوافق الصوتي بين كلمتي ثانية وبامية، أبدعها هذا الرجل البسيط غير المتخصص وربما كان أُميًّا، إذن التغيير والإبداع في اللغة ليس قاصرا علي شخص بعينه. ونحن نقابل في حياتنا اليومية أمثلة علي ذلك كثيرة، كالذي يخاطب رجلا ظالما قائلا: أنت ظلملم، كنوع من السخرية، فقد أبدع المتكلم صيغة جديدة من اسم الفاعل (ظالم) لم نسمع بها من قبل هي صيغة (ظلملم / بوزن فعلعل) قصد بها السخرية من مبالغة الآخر في الظلم.

ب– عشوائية الرمز اللغوي:

يقول بيكرتون "ربما يقول قائل إن لغة الإنسان تشترك مع لغات أخرى في استعمالها الرموز لنقل المعني ... وبالرغم مما يدعيه بعضهم من أن في اللغة مكونا أيقونيا هائلا، يُجْمِع معظم اللغويين علي أن التمثيل الأيقوني لا يشكل سوى جزء يسير هامشي من اللغة ككل. فصفة العشوائية هي الطاغية علي الغالبية العظمى من الرموز اللغوية. فما علاقة كلب في العربية بكلمة dog في الإنجليزية وperro في الأسبانية ... فليست ثمة ما يشير إلي أن صوت تلك الكلمات يمكن أن يدل علي ذلك الحيوان ، ومع ذلك فإنها جميعا تعني كلب في كل اللغات السابقة "[1].

يشير بيكرتون إلي قضية مضي فصل القول فيها، وهي عشوائية اللغة. فاللغة لا تشير إلي علاقة ما بين الصوت كرمز لغوي وما يرمز إليه؛ فهي اتفاق بين جماعة لغوية ما علي جعل هذا الرمز الصوتي اسما لهذا الشيء، قد يتفق ذلك مع جماعة لغوية أخرى

(١) اللغة وسلوك الإنسان:١١

أو لا يتفق، لكن قوله هذا لا يخلو من إشارة ضمنية إلي أن اللغة وإن تعددت في شكل لغات إلا أنها ما زالت تصل لنا كأصوات تحقق التواصل بيننا، كما قال ابن جني.

المحور الخامس: المخ يُرمِّز

أ) الرمز في المخ:

يرى مارك سيمز أن العقل الذي نفكر به هو مَن يقوم بعملية الترميز، فطبيعته ترميزية؛ إننا كي نتواصل مع الآخرين نضع لكل شيء رمزا يشير إليه؛ ويستدعيه عند الحاجة، ثم تنمو عملية الترميز فينا لتشمل كل شيء في عالمنا، ويبدأ هذا منذ الولادة، فالطفل يولد بمخ فارغ من الرموز (أغلب الآراء) ثم يكتسب لغته من بيئته كرموز خاصة بها عن طريق التعلم، ثم يمتلك بعد ذلك القدرة علي الترميز بنفسه؛ فيصنع رمزا لكل شيء جديد في عالمه، ربما يكون جديدا ويلقى قبولا في مجتمعه، فيصبح اسما دائما لهذا الشيء، ويصبح الطفل في هذه الحالة مبدعا ومبتكرا لغويا، يقول مارك سيمز "إن طبيعة العقل البشري؛ هي عملية قوامها الرموز، التي تتسم بالفردية والجمعية في آن واحد، إن العملية العقلية الرمزية المتمثلة في العقل تنشط لدى الأفراد فحسب، لكنها لا توجد قط بمعزل عن مجموعة الرموز المشتركة عبر بقاع الأرض وبين الجبال، فما من عقل بمعزل عن العالم، فمخ الوليد لا يبني العقل من الصفر استنادا إلي البرمجة البيولوجية فحسب، بل يطور العقل بمعلومات مستخلصة من بيئته الرمزية الخاصة."[1]

إن المخ مصدر الترميز؛ فيصبح الترميز قدرة فطرية تمتلكها أدمغة البشر؛ تمكنهم من صنع رمز لكل شيء، والعالم الذي نعيش فيه هو من يزودنا بالأشياء التي تقوم أمخاخنا بوضع رموز لها، فمخ الطفل يولد صفرا من الرموز، ونتيجة طبيعة المخ البشري الترميزية الموجودة في التكوين البيولوجي لمخه؛ وهو المصنع الذي تُصنع فيه عملية الترميز؛ فالمخ البشري هو من يقوم بترميز الأشياء؛ من خلال الخبرات التي

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل :١٤

يكتسبها في حياته من عالمه المحيط به، وهو تأكيد منه علي ما ذكرتُه آنفا من أن عملية الترميز الصوتي تنطلق من المخ البشري، فهي ضمن المكونات الفطرية لدى الإنسان ليستطيع الكلام والتواصل.

"إن واقعنا العقلي عملية بشرية فريدة تتألف من رموز ما إن تخرج للعالم تتحول إلي حقيقة ذاتية؛ أي يصبح لها وجود. ويمكن تعريف هذه الحقيقة بواسطة التشابكات السياقية المعقدة التي تم توظيف الرمز فيها."[1]

إن المخ البشري هو من يقوم بعملية الترميز، ويصنعها، ويجعل منها واقعا لغويا تفاعليا تواصليا؛ ذلك الواقع هو ما يمكننا من العيش معا، فيصبح دور المخ في عملية إنتاج الرمز كقدرة فطرية لديه هو:

١- وضع الرمز الصوتي. ٢- تخزين الرمز بالشبكة العصبية.

٣- استدعاء الرمز عند الحاجة.

لكن الأمر غير ذلك؛ فالمخ هو الآلة البيولوجية التي يظهر نشاطها الوظيفي فيما سميناه بالعقل الذي هو نتيجة هذا الأداء؛ بما يعرف بالعمليات العقلية، فيظل العقل هو الوظيفة الفعلية للمخ، رغم اعتباره قوة غيبية؛ لكنه في حقيقته وظيفة فعلية للنشاط الوظيفي للمخ؛ تقوم بعملية الترميز، فيصبح المخ آلة الترميز؛ والعقل النتيجة الظاهرة للنشاط الوظيفي للمخ.

ب) خلاف حول العقل والمخ أيهم يُرمِّز:

إذا اقتنعنا أن المخ آلة التفكير؛ فسيظهر عمله في عملية الترميز في إطار عمليات سميناها العمليات العقلية، فعمل المخ عبارة عن عملية ترميزية؛ فمن الممكن أن نتعامل معه في ذلك الإطار، بأن نخضعه للتحليل المنطقي التجريبي استنادا إلي تراكم الأدلة الظرفية التي حدثت لنا من قبل، والتي تؤكد لنا عمله. وعليه؛ يمكن أن نقوم بتقديم فرضيات وتفنيدات عن آلية عمله حسب قوانين هذا النظام. "فالرموز كالحقائق يمكن تفسيرها باكتشاف وتحليل السياق، الذي يساهم في طبيعتها الخاصة بالضبط"[2].

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل :١٥

(٢) البنية المحال اختزالها للعقل:١٥

يرى مارك سيمز أنه يجب أن ننظر إلى حقيقة العقل بوصفها عملية ترميزية، أي أن العقل في حقيقته هو عملية ترميز، أي عندما تقوم الآلة البيولوجية التي فينا المسماة بالمخ بعملية عقلية ترميزية، نسمي تلك العملية بالعملية العقلية الترميزية، لأن المخ يقوم بها، والعقل هو النشاط الوظيفي لعمل تلك الآلة (المخ). من هنا يمكن أن نحلل حقائق العقل بوصفها عمليات تخضع للتحليل التجريبي والمعملي. يقول سيمز "عندما يتقبل المرء حقيقة العقل باعتبارها عملية رمزية، ويتعامل مع ظواهرها من هذا المنطلق، تصبح حقائق العقل (أو الحقائق في الواقع الرمزي) عرضة للتحليل المنطقي والتجريبي عبر تراكم الدليل الظرفي، الذي يسمح للمرء بالتصريح بفرضيات وتفنيدات بحسب القوانين التي تحكم النظام."[١]

لذا يمكننا النظر إلي العقل كشيء له وجود مادي ملموس من خلال تجاربنا السابقة معه، ومن خلال السياقات التي تؤثر عليه ببيئته؛ مما يجعلنا نُخضعه للتحليل العلمي والمنطقي؛ يقول سيمز "لذلك تجعل غرينفيلد البحث المنطقي والعلمي في العقل البشري أمرا ممكنا"[٢] لأنها تخضعه للتجربة؛ ومراعاة المؤثرات البيئة والسياقية عليه. ويصبح العقل كالأشياء المادية الخاضعة للتحليل وإجراء التجارب عليه.

المحور السادس: صناعة الرمز

أ) عند مارك سيمز:

يُصنع الرمز من توليفة من المعلومات المستمدة من عالمه المحيط به، ومن رموز أخري "فليس بالإمكان فهم الرموز علي أنها مجموعة من العلامات دون بنية منظومية تشير علي نحو منظم إلي مجموعة من الماصدقيات المشار إليها في الخارج؛ ذلك لأن الرموز لا تمثل فقط أشياء في العالم، بل تمثل أيضا بعضها بعضا، ونظرا لأن الرموز لا تشير مباشرة إلي أشياء العالم، وإنما تشير بشكل غير مباشر عن طريق الإشارة أو الإحالة إلي رموز أخرى؛ لذلك فإنها (ضمنا) كيانات توليفية تستمد قواعدها المرجعية بفضل شغلها مواضع محددة داخل منظومة أو نسق منظم من رموز أخرى، ثم إن اكتساب كل منها بداية وكذا استعمالها فيما بعد؛ يستلزم تحليلا توليفيا"[٣]

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٥

(٢) البنية المحال اختزالها للعقل:١٥

(٣) الإنسان. اللغة . الرمز: ١٧٨

صناعة الرمز تستدعي عدة عناصر ليصبح الرمز صالحا للاستعمال التواصلي، هناك مجموعة أشياء تدخل ضمن تكوينه؛ لأن الرمز ليس هذا اللفظ أو تلك الإشارة؛ بل هو مجموعة أشياء تم صهرها معا لتصنع هذا الرمز الصوتي أو الإشاري، فهو توليفة من أشياء مجتمعة معا للإشارة إلي نفسها بهذا الرمز الذي سينوب عنها. فتدخل في تكوينه تلك المجموعة المتوالفة معا أي متجانسة معا، منها: أشياء عالمه، تاريخ اللفظ ومجتمعه وثقافته وتراثه، والبناء النفسي لبيئته وشعبه وعاداته. كل هذه الأشياء مجتمعة معا تصنع الرمز، وانطلاقا من هذه المكونات يمكن فهمه وفك تركيبه؛ بإرجاعه إلي المكونات السابقة التي صنع منها أو الإحالة إليها.كما سنري عند دراسة مرجع الرمز.

ب) عند ديكون:

أولا: صناعة الرمز وفك شفرته:

يرى ديكون أن صناعة الرمز اللغوي تقوم على أساس من عمل الشبكة المتتابعة العصبية، حيث يمكن أن نصنع رمزا للشيء بناء على علاقة بين الرمز وموضوعه، يقول "يعتبر فك شفرة المرجعية الرمزية، والارتباطات الرمزية أمثلة غاية في الوضوح للعلاقات الموزعة على أوسع نطاق تنعكس فقط بشكل غير مباشر للغاية في العلاقات الترابطية والتبادلية بين الرموز والموضوعات."(١)

أشار مارك سيمز آنفا إلي كيفية صناعة الرمز والتوليفة التي تصنعه، وهنا يسير ديكون في اتجاه معاكس وهو كيفية فك الرمز وتحليله إلي مكوناته الأولى التي تكون منه؛ بفك شفرته اللغوية التي يرجع إليها الرمز من خلال معرفة ارتباطاته الرمزية. إن فك الشفرة اللغوية للرمز تقوم على بيان العلاقات المترابطة والمتبادلة بين الرمز وموضوعه؛ فكل موضوع يحوي مجموعة من الألفاظ التي تشير إليه وترتبط به، فالرموز تحقق التواصل بين الأفراد عندما تكون معروفة لكل أفراد النظامين اللغويين، فعندما تقول لي :book، تكون هذا الكلمة مفهومة لدى؛ إذا كنت أعرف نظام اللغة الإنجليزية، لذا يمكنني حل هذه الشفرة، فالمشكلة محددة في موضوع واحد هو موقع الكلمة من النظامين؛ أي معناها فيهما. لكن يصعب حل شفرة الكلمة إذا فهمناها في ضوء الجانب التكويني فقط، أي علي أساس من الارتباط بين الكلمة والموضوع، بل

(١) الإنسان . اللغة . الرمز: ٢٤٧

يجب معرفة النظام اللغوي في اللغتين معا. يقول ديكون " فالرموز يمكن استخدامها بسهولة حينما يكون التشفير من نظام إلى نظام معروفا، ذلك لأن التحليل الظاهري علي الأقل يمكن اختزاله إلى مشكلة تعيين بسيطة للمواقع، ولكن من المستحيل تماما اكتشاف التسجيل الشفري المقصور فقط على التكوينات النظامية للارتباطات بين الكلمة والموضوع." [1]

المحور السابع: الترميز الإبداعي

ذكر ديكون في (أولا) كيفية صناعة الرمز وفك شفرته وشبكة العلاقات التي يُصنع منها الرمز، وهنا يتحدث عن إبداع المتكلم في صنعه للرمز، وذلك بالنظر إلى زوايا غير مطروقة في الشيء الذي نريد صنع رمز جديد له؛ فنصنع منها رمزا له، فيصبح هذا الرمز الجديد اسما له في هذا المجتمع اللغوي بعينه، ثم نرى الشيء نفسه في مجتمع لغوي آخر وقد صُنِع له رمزا لغويا آخر، وكذا في مجتمع ثالث، وكل رمز يصح أن يطلق عليه ويصبح اسما له، لأنه يشير إلى زاوية رؤية فيه لم يرها أبناء المجتمعات اللغوية الأخرى.

وتتم هذه العملية إذا حدث أن قمنا بصنع رمز له على أسس مخالفة لما سبق؛ فنبعد عن موضوع الشيء الذي نرمز له؛ ونصنع له رمزا بعيدا عن موضوعه، فننظر إليه من زوايا أخرى فيه غير مطروقة، لقد سمى ديكون هذه العملية بتعلم الرمز، ولكنني أرى أن أسميها (الترميز الإبداعي) لأننا نبدع رمزا للشيء بعيدا عن موضوعه، ومن زاوية فيه غير مطروقة، يطرقها المتكلم المبدع؛ فنستحسنها فتصير اسما جديدا لهذا الشيء.

إن صنع الرمز يحتاج إلى معرفة العلاقات المرتبطة بالشيء الذي نصنع له رمزا والتي تكون أقل وضوحا؛ فربما لا يلتفت إليها كثيرون، فنبتعد عن الارتباطات الواضحة بهذا الشيء أي في بؤرة اهتمامنا به وصلب عمله، فنكتشف بعض العلاقات المنتشرة في الشيء التي هي أقل وضوحا؛ فنبتعد عن العلاقة بين الكلمة وموضوعها، لنجد أنماطا أعلى من علاقات التوليف بين الرموز، فنلاحظ وجود أنماط أخرى في

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٤٧

الشيء؛ ربما لم نلاحظها من قبل. يقول ديكون "نعرف أن تعلم ولو رمز بسيط فقط يستلزم نهجا من شأنه أن يرجئ الالتزام بالارتباطات الواضحة البؤرية إلى حين اكتساب بعض العلاقات المنتشرة الأقل وضوحا. وهنا نجد أن تحول الانتباه بعيدا عن تفصيلات العلاقات بين الكلمة والموضوع هو السبيل الوحيد المحتمل لملاحظة وجود أنماط أعلى مكانة من العلاقات التوليفية بين الرموز"[1]

مثال (١):

فإذا نظرنا إلي شعر المرأة من جهة لم تطرق من قبل، وهي حالته بعد أن يقص، ويلقى علي الأرض. إنها حالة محزنة من شعر نتغزل فيه إلي شيء ملقى علي الأرض، إنها زاوية رؤية جديدة ونظرة إلي جانب آخر في الشعر، هذا الجانب دفع ببعض المتكلمين إلي إبداع رمز يصور هذه الحالة ويربط بينها وبين حالة الإنسان المهمل الذي لا قيمة له، ليقول لزميله: هذا فلان احلق له. أي أهمله كما أُهْمل الشعر بعد حلاقته.

مثال (٢):

إن جهاز الاتصالات الحديث (الموبيل) عندما نبعد عن موضوعه (عملية الاتصال) وما يأتي منه من كلمات وأفعال تخص هذا الموضوع مثل الكلمات (موصل واتصل) وغير ذلك من مسميات؛ لننظر إليه في ضوء علاقات أعلى لنصنع رمزا له؛ فإننا نرى جوانب أخرى في الجهاز لم نرها من قبل؛ فصنعنا له رمزا في مصر هو (محمول) لأنه يُحمل، وكذلك عندما نظر إليه قوم آخرون من جانب آخر؛ وضعوا له رمزا بعيدا أيضا عن موضوعه في الخليج العربي (جوال)، وآخرون في الشام قالوا (نقال/ خلوي). إن صنع الرمز جاء من جوانب بعيدة عن موضوعه، لنرى مستويات أعلى نصنع منها الرمز.

المحور الثامن: مرجع الرمز واستدعاؤه في المخ وتطوره

أ- مرجع الرمز:

مرجعية الرمز ترتبط بالبيئة المادية التي تنشأ فيها، من حيث الكيف، لكنها لا تؤثر علي حياتنا البيولوجية، لماذا؟ لأن الرمز من صنع المخ يرتبط بالبيئة التي ينشأ فيها هذا

---

(١) الإنسان . اللغة . الرمز:٢٤٧

الرمز وبظروفه، أما حياتنا البيولوجية فشيء مستقل عنه، يقول مارك سيمز "يتكون العالم العقلي البشري من رموز وحقائق ترتبط برابط كيفي فحسب بمرجعها في البيئة المادية وليست لها تبعية علي بقائنا البيولوجي."[1] فالمخ البشري به مجموعة رموز وحقائق يصنعها ويسجلها داخله، وترتبط هذه الرموز ببيئته المادية؛ كمرجع لها يرتبط بها برباط كيفي؛ وتعبر عنه من خلال حقائق مادية موجودة في واقعه المادي، دون تبعية لبقائنا البيولوجي، أي أن حياتنا البيولوجية مستقلة عن عالم الرموز هذا وصناعته ومرجعيته، ولا يؤثر تكويننا البيولوجي علي عالمنا الرمزي .

ب- استدعاء الرمز:

إنها قدرة أخرى لدى المخ البشري تجاه الرمز، حيث يقوم المخ عند استدعاء الرمز بالربط بين الرمز وما يشير إليه (مرجع الرمز)، هذا الربط هو ما يُمكِّنُهُ من استحضار الشيء بذكر رمزه الصوتي، يقول ديكون "الفكرة الشائعة هي أن الترابط الرمزي يتشكل حين نتعلم أن نزاوج صوتا أو إشارة مطبوعة بشيء آخر في العالم، ... نري أن هذا هو ما نعني به حين نتحدث عن الارتباط الدال موضوعيا، إن الكلمة (المرتبطة أيقونيا بأحداث ماضية لها مخارج نطق مماثلة) والشيء (المرتبط أيقونيا بأشياء مماثلة في خبرات الماضي)، والارتباط بينهما فيما مضى يهيئ للكلمة إمكانية استحضار الشيء في الذهن"[2] إنها عملية ربط بين الصوت وما يشير إليه؛ وما يتعلق بالمشار إليه من أشياء في الماضي، وكيفية استحضار المرء الشيء بكل متعلقاته في ذهنه عند سماع اسمه.

ج- تطور الرمز:

١- هل يتطور الرمز؟

هل الرمز يتطور؟ وكيف ذلك؟ يجيب مارك سيمز قائلا "وكأي عملية بيولوجية ديناميكية، لا تتسم العملية الرمزية بالثبات قط، وعلي الرغم من هذه الديناميكية، فمعني أي رمز يمكن اكتشافه طالما أن هناك دليلا سياقيا كافيا يرتبط بموضوع البحث.[3]"

---

(١) البنية المحال اختزالها للعقل : ١٤

(٢) الإنسان . اللغة . الرمز : ١٣٩

(٣) البنية المحال اختزالها للعقل : ١٥

إن مارك سيمز ينظر إلي عملية الترميز التي تحدث في الإنسان علي أنها تشبه العملية البيولوجية المتغيرة، بل دائمة التغير؛ لتستمر حياة الإنسان. كذا الرمز؛ ففي كل يوم يطور الإنسان ويغير في رموزه التي يشير بها إلي الأشياء، لأن هذه طبيعة الرمز الذي يمثل طبيعة الحياة التي يعيشها المرء بتغيراتها، لهذا فهو يغير فيها وفي رموزها، ويمنعه من الالتباس وجود سياق يميز المعني، فعملية التطور الحياتي التي هي طبيعة الحياة المتغيرة تفرض علي الرمز أن يكون متطورا متغيرا، تلك ديناميكية الحياة وديناميكية الرمز. لكن كيف يتطور الرمز؟

٢- كيف يتطور الرمز؟

إن الرمز يتطور بتطور سياقه البيئي الذي يوجد فيه، فطبيعة العالم التغير والتطور؛ كذا أشياء العالم التي يوجد فيها الرمز، ويمكننا من خلال البيئة اكتشاف هذا التطور. إن الرمز يتطور كتطور الأشياء العضوية، فيخضع لسلاسل من الأسباب المتسقة منطقيا بدقة شديدة أكثر من الأشياء المادية التي تدعمها التجربة، يقول سيمز "وكما في الواقع العضوي، فإن عدد القوى التي ربما تكون عارضة أو مؤثرة في البيئة الرمزية، متعددة ... لذا، وبطريقة موازية لطريقة العلوم المادية، فإن التفسيرات الموثقة للحقائق في بيئة رمزية هي نتاج أكثر سلاسل السببية اتساقا من الناحية المنطقية ودعما من الناحية التجريبية"[(١)]. كما يحدث تغيير في الواقع العضوي؛ بالمثل فإن عددا كبيرا من المؤثرات هي من يؤثر في الرمز وفى بيئته ويطوره، وهي آتية من مؤثرات ناتجة عن حقائق موجودة في البيئة الرمزية؛ تنتج عن سلاسل من الأسباب المتسقة منطقيا تدعمها التجربة، فما نحياه من ظواهر تفكيرية غير مرئية داخلنا تظهرها اللغة؛ وتؤكدها الحقائق التجريبية؛ فما كنا نعده غيبيا لم يعد كذلك لأن التجربة تظهره وتؤكده. كما يحدث في الواقع المادي العضوي.

المحور التاسع: إعجاز الخالق

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣)﴾ [الأعلى] أعطى الله سبحانه الإنسان قدرات وكلفه بمهام؛ فكان عطاؤه سابقا لتكليفه، أعطاه القدرة ضمن خلقه،

(١) البنية المحال اختزالها للعقل:١٥

ثم كلفه بعمارة الأرض، فقبل تكليفه كان عطاؤه، فجاء مزودا بالقدرة التي تتناسب ما كُلِّف به. وكانت هذه الآية الكريمة أكثر دقة في بيان العلاقة بين التكليف والإعانة علي التكليف من أي قول آخر، **﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾** [طه] هذا رد من موسى على سؤال فرعون؛ أن ربه سبحانه هو الذي أعطى كل مخلوق قدراته التي تجعله يقوم بما هو مكلف به في دنياه، ثم هداه إلى كيفية استخدامها إنه العون علي التكليف.

لقد كلف الله سبحانه آدم أن يَعْمُرَ الأرض، وتلك مهمته الكبرى بعد عبادته لله سبحانه وتعالى، ومهمة العمارة تحتاج عطايا وقدرات وهبها سبحانه وتعالى للإنسان، وكانت موضوع هذا الباب هو بيان هذه القدرات وأثرها علي أداء آدم لمهمته (عمارة الأرض)، وقد ذكرناها في هذا الباب إجمالا، ثم فصلنا القول على قدرة التعلم والترميز وجعلنا لهما فصلين مستقلين، ثم يأتي القسم الثاني حول البناء العصبي الذي يمكنه من صنع اللغة، ثم القسم الأخير لبيان القدرة على التصور أو ما يعرف بالبنية التصورية.

القدرة الترميزية :

أشرنا آنفا أن الله تعالى علم آدم كيفية القيام بعملية الترميز؛ فجعل لكل شيء رمزا صوتيا، وقد أعطاه مع بدء خلقته القدرة علي إصدار الصوت؛ ثم أقدره علي الترميز، وأقدره علي التعلم، فكانت ضمن قدراته التي زوده الله بها الترميز الصوتي كقدرة فطرية في مخه كغريزة كالمشي. إذن ما الجديد علي الإنسان بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم؟ إنها اللغة التي اكتسبها من مجتمعه، وحققت له التواصل مع غيره؛ فهي مكتسبة بالتعلم؛ داخلة علي عقله، وهي معجزة من معجزات الله تعالى في الإنسان، بأن علمه القدرة علي الترميز الصوتي؛ وذلك بجعل رمز صوتي لكل شيء يشير إليه، وأعطاه القدرة علي الإبداع والابتكار؛ فأصبح هو وأحفاده قادرين علي فعل ذلك. ومع كل ابتكار جديد يومي؛ ومع كل اكتشاف لأشياء لم نكن نعرفها من قبل؛ يتم ابتكار اسم جديد لها، ونسمى هذه العملية بالترميز الصوتي، لنصنع من هذا كله لغة منظمة ذات قواعد وقوانين حاكمة وضابطة لها، فكانت هذه العملية التي يقوم بها البشر منذ آدم إلى ما شاء الله تعالى؛ آية من آيات صنعه المعجز، يبدع ويغير فيها فينتج من لغته لهجات ولغات متعددة متغيرة في كل مكان يوجد فيه. لهذا قال

سبحانه وتعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾** [الروم: ٢٢] فكانت لغات البشرية علي اختلافها آيةً؛ أي معجزة من معجزاته سبحانه كمعجزة خلق السموات والأرض؛ لهذا جاءت مباشرة بعد معجزة خلق السماوات والأرض، ثم تلاها اختلاف البشر في ألوانهم علي الرغم من عظمتها، لكن اختلاف الألسنة كانت أسبق عنده سبحانه في الترتيب؛ لعظمتها ودقتها البالغة وتحقيقها للتواصل. ونظرا لأن العطف بالواو؛ يمكن أن تكون بمعني التساوى في العظمة بين هذه المعجزات. لم يقل سبحانه وتعالى (واختلاف أصواتكم) لماذا؟ لأن أصوات اللغات واحدة لدى البشر؛ فهي المادة الخام لكل اللغات، أما اللغة فهي موضع ابتكار والإبداع في كل يوم وفي كل لغة على حدة، وفى تطورها وتغيرها وتعددها آية معجزة من آيات الله، وتلك العملية (الإبداع في اللغة) هي موضع الإعجاز لأن كل أدمغة البشر يتم الإبداع داخلها من خلال عملية الترميز، وليس الإبداع في الأصوات، فهي مادة اللغات الخام.

لهذا نقول: لا يمكن أن تصبح لغاتُ البشر لغةً واحدةً في يوم من الأيام؛ فاستحالة ذلك وردت إلينا من القرآن الكريم في الآية السابقة، ويؤكدها واقع اللغات الحية المعاصرة، وإن ما قاله بعض علماء اللغة من إمكانية تحويل لغات البشر كلها لتصير لغة واحدة؛ حلم ووهم محال يرفضه واقع اللغات الحية والقديمة، وكذلك النص القرآني. هذه الاستحالة تمت لسببين هما:

١- حالة التغيير الدائم التي هي طبيعة البشر والكون، والإنسان ابن أغيار دائم التغير.

٢- القدرة على الإبداع المستمر الدائم التي أودعها الله سبحانه وتعالى في أدمغة البشر، فلديه القدرة علي الخلق والإبداع في كل شيء يفكر فيه فيطوره، لهذا فليس من المستغرب أن نرى هذه القدرة الإبداعية لديه تظهر في قدرته المبدعة علي إنتاج عدد لا نهائي من الكلمات والجمل والعبارات من مادة خام واحدة ومحدودة (الأصوات) وعلي الرغم من أن كل لغة استقلت بمجموعة أصوات خاصة بها؛ إلا أنها شاركت لغات أخرى في بعض أصواتها، وأيضا اختلفت معها في بعضها الآخر، لهذا استطاعوا إنتاج كم كبير من اللغات واللهجات المتعددة والمتجددة، والتي لا زالت في تزايد إلى يوم يبعثون.